

(٤) أصول الأسلوبية ومذاهبها

كان علم اللغة طيلة القرن التاسع عشر - كما ذكر بيير جيرو (١) - مادياً لا يعنيه من أمر اللغة إلا تحليلها إلى عناصرها ، حتمياً يبحث عن العلل المادية للظواهر ، تاريخياً تحدوه فلسفة التطور التي كانت سائدة حينذاك .

ومن ثم ، كان مجاله والموضوع المبحوث عنه فيه الأصوات ، وما يتعلق بها ، من حيث هي مادة معينة يمكن قياسها وإجراء التجارب عليها ، ثم صيغ الألفاظ التي تدخل في باب الصرف ، وربما ألم بعد ذلك بأطراف من النحو ومسائله .

أما الأسلوب فلم يكن هناك متسع للبحث فيه ، إذ الأسلوب أولاً وأخيراً ظاهرة لها تعلق بالفرد ، ولا سبيل مع الحتمية والمادية إلى استيعابه ، فالبحث في اللغة كان ينصب على خصائصها الطبيعية والمادية دون أن يمتد إلى علاقتها بالفكر والإنسان .

غير أن تطور التفكير العلمي ، وتجديد المبادئ المتعلقة باللغة ، كان من شأنهما تغليب النظر في الأسلوب على ما عداه ، وذلك من طريقين : أولهما المثالية التي أفضت إلى النقد الإيجابي للمادية التحليلية والعقلية ، وثانيهما تجديد الوضعية بحيث طوعت مناهجها للملاحظة